

الصلاة.. مدرسة داخلية



مفهوم الإيمان.. مرّة أخرى: إنّ قصة الإيمان في الواقع العام ربّما يحملها الكثير من الناس على أن تكون مجرد فكرة في العقل أو نبضة في القلب أو حركة في اللسان، لا أن تكون حياة وحركة في الواقع تحدد للإنسان دوره وعلاقاته وأوضاعه ليكون الإيمان شيئاً يتجسد فيه لا مجرد شيء يتمثله. سرّ الفلاح: وهذا الذي يمثله الإيمان في الداخل والخارج في بعض امتداداته هو سرّ فلاح الإنسان. وإِ عندما يطلق الفلاح فإنّه يطلقه للدنيا وللآخرة (قَدّ أَفْوَاجَ الْمُؤْمِنِينَ) (المؤمنون/ 1)، هؤلاء الذين عاش إيمانهم في عقولهم وقلوبهم حتى تحول إلى عنوان لشخصياتهم في معناها الإنساني الذي يمثل علاقة الإنسان بإِ تعالى فيما يتمثله من عظمة الإِ فيتحول ذلك إلى خشوع وخضوع وإحساس بمقام الإِ ومقام الإنسان أمامه.

الصلاة مدرسة ذاتية: (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) (المؤمنون/ 2)، وقصة الصلاة - أيها الأحبة - كما قدّمها الإِ لنا هي أنها مدرسة داخلية تخاطب عقل الإنسان وقلبه ومشاعره وأحاسيسه لتصنع منه شيئاً في الداخل ينظّم للإنسان خط السير في الاتجاه المستقيم في الخارج. ومن هنا كانت الصلاة في القرآن شيئاً يتحرك مع الإيمان حتى كأنّه يمثل عمقه ويمثل أصلته، وكأنّ الإنسان الذي لا صلاة له هو إنسان لا إيمان له، لأنّ الإيمان إذا كفّ عن أن يجعلك تعيش عبوديتك لربّك في ممارساتك العضوية والروحية فإنّه يبقى مجرد شيء ليس فيه روح وليس فيه حياة تماماً كما لو كان الإيمان معادلة فكرية ترقد في زاوية من العقل ولا تلامس الروح ولا تعيش في الشعور والفكر. وإنما تكون إيماناً إذا نزلت إلى القلب وإلى

الإحساس وإلى الشعور، بحيث يهتز القلب معها كما قرأنا في الآية الكريمة التي تقول:

(إِنَّ زَمَّ أُمِّمًا وَمِنْذُونََ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهَ وَجِلَاتٌ قُلُوبُهُمْ) (الأنفال/ 2)، اهتزوا واهتزت قلوبهم جرّاء إحاسهم بعظمة ربهم. الممارسة اليومية للإيمان: والصلاة - أيها الأحبة - تمثل الممارسة اليومية للإيمان، فالإنسان إذا لم يمارس إيمانه يجمد ويموت روحياً، في حين أن الممارسة التي يشارك فيها العقل والقلب واللسان والحركة تجعل الإيمان يعيش معك بكلّ وبذلك يتأصل في وجودك، وهذا ما تعطيه الصلاة في دلالاتها. فعندما تبدأ صلاتك بتكبيرة الإحرام "أ أكبر" فإنّ الأكبر يختزن في داخله النظر إلى الأصغر، ولذلك فإنّ الصلاة تحمل لك معنىً إيحائياً أنّ كل ما عداه أصغر، فإذا كان ما دونه الأصغر فكيف يمكن لك أن تهمل الأكبر في وحيه والأكبر في عظمته والأكبر في نعمه، كيف يمكن أن تهمله لتسقط أمام الأصغر، وعندما تفتح بك كلمة "أ أكبر" في الآفاق فإنك ستأخذ منها روحاً في معنى الروح لتتصور أنّ سبحانه وتعالى في كلّ صفاته التي لا يقترب منها أحد، ولتعيش أنّ سبحانه وتعالى في أسرار قدرته التي لا يمكن أن يدنو منها أحد، ولتتصور أنّ في نعمه التي لا يمكن أن يعطيها أحد غيره، فهو الأكبر في الصفات، وهو الأكبر في الخلق والقدرة، وهو الأكبر في النعم التي ينعمها على الإنسان. وعندما تعيش ما يعيشه الناس من قوى يمكن لها أن تسقط نفسك، ويمكن لها أن تسقط موقفك، عند ذلك تلتفت إلى أنّ سبحانه وتعالى لتقول "أ أكبر" وإنّ الآخرين مهما بلغوا من قوة فدأنّ القوّوّة لِّللهِ جَمِيعًا) (البقرة/ 165)، و(وَإِنَّ الْعَزِيزَ لَللَّهِ جَمِيعًا) (النساء/ 139)، وبذلك تحفظ لك هذه الكلمة بمعناها الرحب والخصب توازنك أمام الكبار، لأنّك عندما تلتفت إليهم وتدخل في مقارنة بينهم وبين أنّ فإنّك تتصورهم صغاراً وبذلك تتوازن حركتك في الحياة، وعندما تتوازن تفكّر، وعندما تخطّط، وعندما تخطّط، تتحرك. من موانع التفكير: إنّ مشكلة الذين يخافون هي أنّ الخوف يمنعهم من أن يفكروا، لأنّ الخوف يُطبق على كلّ عقولهم فلا تملك عقولهم أن تتوازن وتستقر، ولذلك قال أنّ سبحانه وتعالى وهو يحدثنا عن الخوف (إِنَّ زَمَّ أُمِّمًا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ) (آل عمران/ 175)، فالشيطان هو الذي يخلق في نفوسكم الخوف وهو الذي يسقطكم من خلال هذا الخوف، يسقط فكريكم كما يسقط حياتكم ويسقط مواقفكم (فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ) (آل عمران/ 175)، وحده خوف أنّ هو الذي يجعلك تتوازن في عقلك عندما تشعر بأنّ نور أنّ يشرق في عقلك، فأنت عندما تخافه فإنك تتحمل المسؤولية، إنّك تخافه فتفكّر فيما لا يغضبه عليك، ذلك أنّ التفكير الحقّ هو الذي يجعلك تبذل جهدك في أن يكون حقاً حتى لا يغضب أنّ عليك، وتفتح عاطفتك لتكون عاطفة الحقّ حتى لا يغضب أنّ عليك، وتفتح حياتك لتسير في طريق الحقّ حتى لا يغضب أنّ عليك. وفي المحصلة فإنّ أنّ هو الذي يحرّرك من كلّ خوف آخر وهو الذي يؤمنك من

كلِّ ما تخافه في الدنيا والآخرة، لذلك فإنَّ هذه الكلمة يمكن أن تعطي الكثير كل ما اتسعت آفاقك وامتدت معها. أمَّ الكتاب: وهكذا عندما تقرأ سورة الفاتحة، وما أدراك ما الفاتحة إنها أمَّ الكتاب، لأنَّها اختصرت الكتاب كلَّه فاختصرت معنى [(.. رَبِّ) العَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ] (الفاتحة / 2-4)، هو المعبود وحده، وهو المستعان وحده، وهو الهادي إلى الصراط المستقيم وحده، وهو الذي يمنعك من أن تنحرف مع المغضوب عليهم لتجد الحقَّ أو تسير مع الظالمين لتضيِّع طريق الحقِّ. ومن ثمَّ تأتي آيات [والسور الأخرى، وتسبِّح ربَّك العظيم وليتجدد إحساسك بالعظمة وأنت ترقع، ويتعاطم إحساسك بالعظمة وأنت تسجد. وهكذا تظل في الصلاة من تكبير إلى تكبير ومن قراءة إلى ذكر ومن ركوع إلى ركوع، وفي النهاية تعيش السلام، لأنَّك في الصلاة عشت السلام مع نفسك والسلام مع ربِّك والسلام مع الناس، ولذلك تقول "السلام عليك أيها النبي" ورحمة [وربكاته " لأنَّه هو الذي شقَّ لنا طريق السلام من خلال وحي [، وتقول بعد ذلك "السلام علينا" لتعيش السلام مع نفسك فلا تحارب الخير والعدل والحقَّ في نفسك وتسلِّم على عباد [الصالحين باعتبار أنهم فريقك، ثمَّ تنطلق لتسلِّم على الملائكة وتسلِّم على الناس جميعاً لتنطلق الصلاة في سائر الأرجاء والأجواء وليكون تحريمها التكبير لتعيش في أجواء التكبير، وليكون تحليلها التسليم لتكون الصلاة بالتالي حركة في العقل وفي القلب وفي الجسد، بل حركة من أجل السلام: السلام مع النفس ومع [ومع الناس. (إِنَّ الصَّلَاةَ تَذْهِبُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) (العنكبوت / 45)، وبذلك تعني الصلاة شيئاً كثيراً للإنسان، فهي ليست شيئاً على الهامش ولكنها شيء في عمق العمق. ويروى عن رسول [(ص) أنَّه قال: "إنَّ الصلاة عمود الدين وإنها أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة من الأعمال، وأول ما يُسئل عنه العبد بعد المعرفة، فإن قبلت قبل ما سواها وإن ردت رد ما سواها" [1] ذلك أنَّ الدِّين يرتكز على الإيمان ب[والصلاة هي "معراج المؤمن" [2] إلى [وكلما عرج الإنسان إلى [بروحه في صلاته عرف [أكثر وقرب من [أكثر (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) (المؤمنون / 2)، لأنهم تمثلوا صلاتهم فيما يذكرون ويقرأون ويفعلون وبذلك جسّدوا الإيمان في الممارسة الصلواتية. الإعراض عن اللغو: (وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ) (المؤمنون / 3)، واللغو هو كلُّ ما لا ينفع، وكلُّ الكلمات التي لا معنى لها، وكلُّ الأفعال التي لا مضمون لها، وكلُّ العلاقات التي لا جدوى منها، وكلُّ المواقف التي لا لون لها ولا طعم ولا رائحة، فأنت في الحياة طاقة لا بدَّ أن تعطي الحياة شيئاً، أما أن يكون كلامك لغواً لا معنى له، وأن يكون عملك ونشاطك لغواً لا نتيجة له، وأن تكون علاقاتك لغواً لا فائدة منه، وأن تكون مواقفك شيئاً لا يحقق لك ولا للحياة شيئاً، فإنَّ معنى ذلك أنَّك أعطيت شيئاً من الحياة موتاً، لأنَّ الحياة هي بمقدار ما تنتج من خير

وبمقدار ما تعطي منه (وَآيَةٌ لَهُمُْ الْأَرْضُ الْمَيْتَةَ أُحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يُأْكُلُونَ) (يس/ 33)، (وَ تَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْزِلَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) (الحج/ 5)، فالبطالة موت واللغو موت والجمود موت، ولذلك فأنت تعيش من أجل أن تعطي الفكر أفقاً جديداً، وأن تعطي الحياة حركة جديدة وأن تعطي الواقع شيئاً جديداً من خلال انطلاق روحك في كلِّ روح الحياة، وعقلك في كلِّ عقل الحياة، وحركتك في كلِّ حركة الحياة، حتى إذا جاءك الأجل ومت بقي منك للحياة شيء بقدر طاقتك (وَ الْيَاقِينَاتُ الْمَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَ خَيْرٌ أَمَلًا) (الكهف/ 46)، (وَ الْيَاقِينَاتُ الْمَّالِحَاتُ)، هي ما يبقى لك مما ينفع الناس ويبقى لك مما يرفع □ به درجتك ويرضى به عنك. لذلك فالمؤمن هو الذي يعرض عن اللغو، لا سيما وأنَّ من يعيش اللغو يفقد شيئاً كبيراً من الإيمان ويعيش ضعف إيمانه وفقر إيمانه، فالحقيقة هي أنَّ المؤمن لا يفرغ للهو وللعبث ولكنه يفرغ للعمل، وهذا ما عبّر عنه الإمام عليّ بن الحسين زين العابدين (ع) في مناجاته لربه عندما قال "يا من ذكره شرف للذاكرين، ويا من شكره فوزٌ للشاكرين، ويا من طاعته نجاة للمطيعين، صلِّ على محمد وآل محمد واشغل قلوبنا" قبل ألسنتنا "بذكرك عن كلِّ ذكر، وألسنتنا بشكرك عن كلِّ شكر وجوارحنا بطاعتك عن كلِّ طاعة، فإنَّ قدرت لنا فراغاً من شغل فاجعله فراغ سلامة لا تدركننا فيه تبعة ولا تلحقنا فيه سآمة، حتى ينصرف عنا كتّاب السيئات بصحيفة خالية من ذكر سيِّئَاتنا ويتولى كتّاب الحسنات عنا مسرورين" بما كتبوا من حسنات لأننا لم نفعل إلا خيراً ولأننا لم نترك إلا شراً، أما الشيء الذي لا خير فيه ولا شرٌّ فيه فلماذا تستهلك طاقتك فيه؟! فعل الزكاة: (وَ الَّذِينَ هُمْ لِّلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ) (المؤمنون/ 4)، والزكاة في القرآن لا تختص بالزكاة وهدية تهبها وحق تعطيه وما إلى ذلك: فالمؤمن هو الذي يعيش روح العطاء وهو الذي لا يبخل بشيء، لأنَّه إذا بخل فإنما يبخل على نفسه، أما إذا أعطى فإنَّ العطاء ينطلق منه إلى □ سبحانه وتعالى فهو الذي يتقبل عطاءنا وهو الذي يجزينا على ذلك، لذلك فالمؤمن ليس بخيلاً وهو ليس إنساناً لا يتحسس حاجات الناس الذين تنقلهم حاجاتهم والذين تؤلمهم معاناتهم. المؤمن عفيف: (وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ) (المؤمنون/ 5)، والمؤمن عفيف يعيش العفة في شهواته، □ سبحانه وتعالى عندما خلق شهواتنا لم يرد منّا أن نقتل شهواتنا وأن نجمدها، بل أراد للإنسان أن يعيش حياته بشكل طبيعي جداً شريطة أن يتوازن. كلُّ ما شئت ولكن في الحلال والبس ما شئت وأعمل أي شيء ولكن في الحلال. وكذلك الجنس الذي هو غريزة حيوية أساسية تشبع للإنسان حاجته في أحاسيسه الجسدية وتحقق له امتداده في الزمن، ولكن □ قال لك ليس الجنس مجرد شيء تتلهى به وتطلق

فيه حريتك، بل لابد من أن تنظّم غريزتك من خلال طهارتك النفسية، ومن خلال نظام المجتمع الذي حولك، لأنّ الجنس عندما يعيش الفوضى فستكون الأنساب فوضى، وستكون العلاقات فوضى، وسوف يفقد المجتمع هذا السكن الذي يوحي بالطمأنينة والذي يقيم العلاقات حتى لو كانت الشهوة في داخلها على أساس المودة والرحمة (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً) (الروم / 21)، لذلك قال الله لك إنّ عليك أن تحفظ فرجك إلا في المواقع المباحة. والخطاب قد يكون في شكله اللفظي للرجال ولكنه يشمل النساء أيضاً بلحظات التغليب، ولأنّ مسألة الحديث عن الجنس بالنسبة للنساء قد يكون شيئاً غير مألوف، ولذلك كان الحديث دائماً مع الرجل ولم يكن مع المرأة، وإلا فإنّ كلاً من الرجل والمرأة سواء في عالم العفة أو في عالم الانحراف، ولذلك جعل عقابهما سواء بسواء وجعل ثوابهما سواء بسواء (وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ) (الأحزاب / 35)، (الزّانية) (وَالزّانية فَاجِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ) (النور / 2)، (وَالسّدين هم لغير وجههم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيّمانهم وإلّا زوّجهم غير ملامين) (المؤمنون / 5-6)، ذلك بأنّ إباح لهم ذلك (فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ) (المؤمنون / 7)، في أية ممارسة لم يأذن بها الله سواء كانت زنى أو كانت لواطاً أو كانت سحاقاً أو حتى لو كانت كما في بعض الروايات إستمناءً (فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ) (المؤمنون / 7)، ولقد ورد في بعض الكلمات المأثورة أنّ العفة عبادة "ما عبد الله بشيء أفضل من عفة بطن وفرج" [3]، "يكاد العفيف أن يكون ملكاً من الملائكة"، (وَالسّدين هم لغير وجههم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيّمانهم وإلّا زوّجهم غير ملامين * فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)، هم المنحرفون عن خط الله المتعدّدون لحدود الله. مراعاة الأمانة والعهد: (وَالسّدين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) (المؤمنون / 8)، (يَا أَيُّهَا السّدين آمنوا وأوفوا بالعقود) (المائدة / 1)، (وَأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) (النحل / 91)، وهكذا (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّذِرُوا الْأَمْنَانَ إِلَىٰ آهْلِهَا) (النساء / 58)، وعندما تكبر الأمانة فتكون بحجم المسؤولية كلّها (إِنَّ اللَّهَ عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السّموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقنّ منها وحملها الإنسان) (الأحزاب / 72)، والأمانة هي المسؤولية عن المال والعرض والنفس والبيئة والوحدة والحياة كلّها.

(إِنَّ النَّاسَ لِرَبِّهِمْ كَرُحَمَاءٌ مُّؤْمِنُونَ أَوْ كَرُحَمَاءٌ مُّكْفُرُونَ أَتَىٰ بِهِنَّ رَسُولُهُمْ وَأَخَذُوا الْوَعْدَ الْكَبِيرَ) (النساء/ 58)، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ) (الأنفال/ 27). (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)، يراعون أمانتهم فلا يخونون ويرعون عهدهم فلا ينقضون هذا العهد، فإنّ تعالى يريد أن يقول لنا، إنّ كلمتك لابدّ أن تكون قانونك، ولقد قالها علي (ع): "الكلام في وثاقتك ما لم تتكلم به فإذا تكلمت به صرت في وثاقتك" [4] فأنت كلمة وعندما تقبل الأمانة فأنت موقف أيضاً، وهي تعني إنسانيتك، والكلمة عهدٌ وهي موقف وتعني إنسانيتك أيضاً، فمن احترم إنسانيته احترم كلمته وعهده وموقفه وأمانته. الابتداء والانتهاى بالصلاة: لقد بدأ الإنسان تعالى بالصلاة خشوعاً حتى يعيش الإنسان روحية الصلاة مع الله، وبدأ بالصلاة التزاماً حتى يحافظ الإنسان عليها من كلّ ما يشغله عنها من علاقاته وأعماله وأوضاعه (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ) (المؤمنون/ 9)، كن الإنسان الذي يحافظ على صلاته ليحافظ بالتالي على أوقاتها وعلى إخلاصها (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنِ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ) (الماعون/ 4-7). من هم الوارثون: (أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ) (المؤمنون/ 10)، هؤلاء هم الذين يورثهم الله أرضه ليجعلهم قادة أرضه وطلّيعه الحركة في أرضه والذين يديرونها ويصنعون فيها الكثير مما يريد وما جاء به وحيه حقاً وعدلاً وخيراً ورحمة وبركة في كلّ المجالات.. (الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ) (المؤمنون/ 11). أيّها الأحبة: إنّ الله يقول لكم، إنّ الفردوس هو إرث هؤلاء فيما يعيشون من عمق هذه العناوين وفيما يتحركون في واقعها.. أتحبون الفردوس؟ والفردوس ليس مجرد نعيم فيه الحور والوالدان وما تشتهيهِ النفس وتلذّ الأعين ولكنه النعيم الكبير (وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ) (التوبة/ 72)، هذه المتعة الروحية، وهذا العنقوان الكبير الذي يعيشه الإنسان عندما يحسّ بأنّ الله راضٍ عن عقله عندما كان عقله يفكّر، وراضٍ عن قلبه عندما كان قلبه ينبض ويخفق بالعاطفة، وراضٍ عن حياته عندما تتحرك حياته في الحق والعدل والخير، وذلك ما يمثله هذا النداء الحبيب الذي يتمنى كلّ واحد منا أن يكون هو المنادي، وهو الذي عانى تعب الحياة في الخمسين والستين والسبعين، وأثقلت ظهره الأعباء وبدأ يستعد للقاء ربّه، كلّ واحدٍ منا ينتظر هذه الهمسة الربانية الروحية الحبيبة (يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي) (الفجر/ 27-29)، الذين رضيت عنهم (وَادْخُلِي جَنَّتِي) (الفجر/ 30). هل نعمل من أجل تحصيل هذه الطمأنينة؟ هل نعمل على أن نكون الراضين بالله بكلّ قضائه وقدره وكلّ وحيه، المرضيين عنده بإيماننا وعملنا الصالح؟ هل نطمع في أن نتحرك في هذا الاتجاه

(وَفِي ذَلِكَ فَلَا تَيْتَنَزَّ فَاسِرُ الْمُتَنَزِّفِ سُونَ) (المطففين/ 26). الهوامش: [1] - بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج10، باب 25، ص394، رواية 1. [2] - المرجع السابق نفسه: ج81، باب 16، ص255، رواية 52. [3] - الكافي، الكليني، ج2، ص79، رواية 1.

[4] - نهج البلاغة، الإمام علي (ع)، قصار الحكم: 381، ص410، دار التعارف للمطبوعات، الطبعة الأولى، 1410هـ / 1990م.

المصدر: كتاب الندوة / 4